العالم القديم

يمكننا القول بأن إنشاء مكتبة الإسكندرية كان أهم حدث على الإطلاق في تاريخ المكتبات في الأزمنة القديمة[1]. ويعزى تخطيط هذه المكتبة إلى بطليموس سوتر Ptolemy Soter (توفي حوالى عام ٢٨٣ ق.م) أول ملوك أسرة خلفاء الإسكندر في مصر Diadochian dynasty أما تنفيذ الخطة فينسب لابنه بطليموس فيلادلفوس philadelphus ويبدو أن هؤلاء الملوك قد خصوا المكتبة بأموال ضخمة، إذ كانت غايتهم جمع أدب اليونان كله، ولم يكن يحول دون غايتهم حائل فقد قيل مثلا إنهم كانوا يصادرون ما تحمله السفن من الكتب عند رسوها بميناء الإسكندرية. وإنهم حين استعاروا من أثينا أعمال مؤلفي التراجيديا الثلاثة العظام، احتفظوا بالنص الأصلي وأعادوا نسخة منه فقط. وقد قدر عدد لفائف البردي التي جمعت في نهاية الأمر بعدة مئات من الآلاف وهو قدر هائل حتى وإن اتضح أن كثيراً منها كان مكررا وأن العمل الأدبي الواحد كان يقع في عدة لفائف. وكانت المكتبة مقسمة إلى قسمين. القسم الأكبر منها في القصر الملكي في حي البروكيوم Brucheum من المدينة، والقسم الأصغر في معبد سيرابيس Serapes، وبعد أن تهدم القسم الأكبر من المكتبة إثر غارة قيصر على الاسكندرية عام ٤٧ ق.م أصبح السيرابيوم المركز الحقيقي للكتب في المدينة.

وقد حاول المؤرخون جاهدين أن يكشفوا خلال أبحاثهم عن المؤسسات التي اتخذ منها البطالمة نماذج لمكتباتهم. وفي هذه المحاولة ذهب الباحثون، القدماء والمحدثون منهم، إلى عصر ماقبل الطوفان، ولكننا في بحثنا سوف نكتفي باستقراء القرون القليلة السابقة على تأسيس مكتبة الإسكندرية.

إن الخطوة المنطقية هي أن نتحرى أولا النموذج الأصلي لهذه المكتبة في مصر القديمة، فقد

---

(١) انظر Fritz Milkau= Geschichte der biblitheken im alten orient. Leibzig, 1935.
وفيه دراسة مسحية مستفيضة عن المكتبات التي وجدت قبل مكتبة الاسكندرية مع حواشي ببليوجرافية كثيرة تعطي تقييماً للمصادر في الموضوع، وليست لهذا الكتاب ترجمة بالانجليزية لسوء الحظ. وانظر في هذا الصدد.
J.W.Thompson = Ancient libraries, Berkeley, 1940.
وهو مفيد وخاصة في قائمة المصادر وانظر أيضا:
Fredrick kenyan = Books and readers in ancient Greece and Rome.London, 1955.
وهو كتاب قصير ولكنه أصيل ومركز.

كانت مصر مصدر مادة الكتابة القديمة، وهي البردي، وكان للمصريين إنتاج وافر من الكتابات في ميادين العلم والأدب، ولعل الكتابة لم تنتشر في تلك الأيام في أي مكان انتشارها في أرض النيل، وكان يوجد أيضا في مصر نظام ممتاز للمحفوظات والسجلات العامة يقوم عليها أمناء كثيرون، ولكنا لم نسمع شيئا عن وجود مكتبات يمكن أن تقارن بمكتبة الإسكندرية. كل ما كان هنالك ، أن المعابد كانت بها مكتبات متصلة بالمحفوظات، وكانت أساسا للأغراض الدينية والتعليمية.

وتقابلنا مجموعات مشابهة لهذه، في السجلات الإدارية وفي البقايا الأدبية، في معابد الحضارة الآشورية والبابلية وأهمها في الحجم والمضمون مكتبة أشوربانيبال التي كشف عن ألواحها الطينية أثناء عمليات التنقيب بالقصر الملكي في مدينة نينوي حوالي منتصف القرن الماضي. وكان آشور بانيبال (٦٦٨-٦٢٦ ق.م.) من ملوك أسرة سارجون آخر أسرة عظيمة من ملوك آشور وكان أكثر من أسلافه عناية بالأنشطة الثقافية. وكان هو نفسه على قدر كبير من التعليم حتى لقد كان يفخر بأنه «يستطيع أن يقرأ النقوش الحجرية التي ترجع إلى ماقبل الطوفان. ومنذ اعتلائه العرش أخذ في جمع آداب بابل وآشور جمعا منظما، وشفع ذلك بإصدار أوامره للحصول على النصوص اللازمة، وكان يعمل له عدد من النساخ، كما كان يصر على إجادة العمل. وكان لمكتبته هيئة من الموظفين المختصين بها، ورتبت بها الكتب بعناية تبعا لموضوعاتها وختمت بخاتم يبين موضعها من المجموعه[1] . كما كانت لها فهارس تيسر استخدامها. وكانت مقتنيات المكتبة من الأعمال الفكرية والوثائق، والرسائل والنصوص الدينية

---

(١) يقرر J. Menaut في كتابه La bibliothèque du palais de Nenève Paris, 1880. ص ٣٢، ان دراسة دقيقة للنقوش تبين أنها رتبت في المكتبة بطريقة منطقية تسهل إعادة بنائها كما يقرر: Carl Bezold مع ذلك بعد دراسة مضنية في كتابه: Catalogue of the cuneiofomablets in the Kowyunjik collection of the British Museum, V. 8 London, 1889.

« إننا لانعرف شيئا عن الطريقة التي رتبت بها الألواح في مكتبه آشور بانيبال» ولكننا نريد ان نقول بأن هناك اتفاقا على أنه كان بالمكتبة نوع من الترتيب المنطقي، إذ إن كثيرا من الالواح التي وجدت تنتمي إلى سلسلة وكان ترتيب كل لوح منها يبين بواسطة تكرار السطر الأخير منه في بداية اللوح الذي يليه وكذلك يكون أول سطر فيه تكرار لآخر سطر في اللوح السابق عليه، كما أن هناك ألواحا تحمل عناوين السلسلة، كما نجد إحالات للسلسلة أو المجموعة التي ينتمي اليها أحيانا في حرد المتن، ومازالت الدراسات عن هذه المكتبة بعيدة عن الكمال» قارن:

R.C.Thompson and R.W. Hutchinson = A century of exploration at Nineveh, London, 1919.

وهو كتاب قصير عميق بكتاب Edward Chiera = They wrote on clay وهو مقدمة عامة شاملة عن الالواح المكتوبة بالخط المسماري وأهميتها التاريخية .

والتواريخ وغيرها مما كتب في فروع المعرفة المختلفة تدل على الغرض الذي جمعت من أجله وهو خدمة الدولة والكهنة وتخليد شهرة مؤسسها وتنمية المعرفة العلمية.

ولاشك في وجود شبه كبير بين مكتبتي نينوى والاسكندرية فقد كانت كلتاهما ذات طابع عالمي، كما أسسهما الملوك الحاكمون. وينبغى أن نلاحظ أيضا أن التنظيم الداخلي للمكتبة الهلينية يذكرنا بالمكتبة الآشورية، كما كان هناك تشابه كبير في معالجة المواد المكتبية في المكتبتين برغم اختلاف مادة الكتابة(الألواح الطينية في نينوى ولفائف البردى في الإسكندرية) إلا أنه فيما يبدو لي أننا لا نستطيع حتى الآن تأييد قيام صلة مباشرة بين الإسكندرية ونينوى، فقد كان يفصل بينهما أربعة قرون من الزمان، وهي فترة حكم ملوك الميديين الفرس الذين لم يهتموا بالمكتبات فيما نعلم. ولامفر من أن نترك للمستقبل الكشف عن هذه الصلات التي مازالت غامضة حتى الآن.

ويقودنا البحث في أحوال المكتبات في بلاد اليونان إلى نتائج خيراً مما وصلنا إليه ، والواقع أن كلمة مكتبة في اللغات الأوروبية تشير إلى اليونان كموطنها الأصلي[1]. ولمَ تكن المكتبات معروفة في اليونان في العصور القديمة، أما ما يقال من أن بيزستوراتوس الاثيني Pesistratus of Athens وبوليكراتوس الساموسيPolycrates of Samon قد أنشأ مكتبات في تلك الأيام الأولى فلا يستحق التصديق. وليس ثمة شك في أنه كانت هناك تجارة رائجة للكتب في عهد بركليسPericles ولكن لايبدو أن العادة جرت إذ ذاك بجمع مجموعات المخطوطات بواسطة المجتمع، كما لم يكن انشاء المكتبات الخاصة جزءاً متمما من البيوت الأرستقراطية في ذلك الوقت.

ومع بداية القرن الرابع قبل الميلاد أصبح من المألوف جدا أن يجمع العلماء والأدباء مكتبات خاصة بهم ومن أمثلة ذلك إشارة وردت في إحدى كوميديات أرستوفان Arstophanes تدل على احتمال وجود مكتبة لدى يوريبيدسEuripides[2] ومن هنا نستطيع القول بأن التقدم الفعلي للمكتبات اليونانية بدأ في الفترة التي شملت نشاط المفكرين العملاقين أفلاطون وأرسطو.

ويعود إلى الأكاديمية ومدرسة المشائين الفضل في إيجاد الحركة العلمية لا في اليونان

---

(١) المصطلح المستخدم في معظم اللغات الغربية مأخوذ عن الكلمتين اليونانيتين المدمجتين، Biblos (كتاب)وtbeke(مستودع أوإناء).

(٢) Aristophanes = Frogs.943,1409

وانظر ايضاAthenaeus, Deipnosophistae,1,3

حيث ورد: « لقد كان لدى يوريبيدس مكتبة من أعظم المكتبات في العالم القديم».

وحدها بل في العالم القديم كله. فقد قام هنا للمرة الأولى «تنظيم للعمل المشترك على نطاق واسع بقيادة رجل فرد» وقد نهض أفلاطون بالبحث المنظم في ميادين الرياضيات والعلوم الطبيعية وجاهد أرسطو بقدر ما استطاع أن يجمع ويضع على أساس سليم الحقائق المتصلة بجميع فروع المعرفة كما أصبح أبا لدراسات النقد في فقة اللغة والتاريخ الأدبي. ولاشك في أن عمل أفلاطون وأرسطو اقتضى« وجود مكتبة ضخمة، وفيما يتعلق بأفلاطون فليس لدينا أي دليل محدد لمثل هذه المكتبة وعلى العكس من ذلك فإننا قد سمعنا أن أرسطو كان يجمع المخطوطات جمعا منظما كما نعلم أيضا التقلبات التي أصابت مكتبته التي خلفها وراءه.

هذا، وقد فتح الإسكندر الأكبر تلميذ أرسطو آفاقا جديدة للتاريخ القديم خلال ما قام به من حملات، فاتسع نطاق الثقافة اليونانية حتى غدت حضارة عالمية ووجدت طبقة عالمية من المتعلمين وأصبح العلم والاطلاع من العوامل المهمة في الثقافة اليونانية، كما أخذت البذور التي غرسها أرسطو تؤتي ثمارها اليانعة، مع وجود اختلاف في الاتجاه العلمي إذ أخذت وحدة المعرفة التي خلفها الأستاذ تتراخى أكثر فأكثر، وبدأت فروع المعرفة المختلفة في الاستقلال، واقتصرت الأبحاث على موضوعات خاصة محددة وحل جمع المعارف الموروثة عن الأجيال السابقة محل الإبداع في كثير من الأحيان. أضف إلى هذا أن الشكل الخارجي للتعاون الفكري اتخذ شكلا آخر، فتحولت مدرسة الفلاسفة الحرة إلى مؤسسة ملكية وذلك أن اليونان اتخذت مملكة ديادوكي Diadochi شكلا للدولة واعتقد هؤلاء الأمراء أن واجبهم تدعيم الثقافة اليونانية ونشرها.

ولقد توفي الاسكندر الأكبر نفسه مبكرا دون أن يتسع له الوقت فينظم الدراسات العلمية على نطاق واسع، ويجعل منها برنامجا حكوميا، وقد نهض بذلك بطليموس الأول الذي اتخذ من ديمتريوس الفالرمي Demetrius of Phalerum مستشاراً روحياً. وأنشأ المتحف على النمط الأثيني واستدعى أكبر علماء العصر إلى البلاط المصري وسرعان ما أصبحت الإسكندرية مركز التعليم الهلينستي. وكانت المكتبة أنشط الوحدات العاملة في المتحف، فدرست الآداب اليونانية دراسة منظمة ووثقت النصوص عن طريق النقد اللغوي والتاريخي وبحثت مشاكل أصالة الكتب وصحة نسبتها إلى مؤلفيها، وحددت أقسام الأعمال الأدبية ومداها وفي نفس الوقت كان لمدرسة الإسكندرية أثر تاريخي في ميدان فنون الكتب كلها فقد انتجت نسخا مقننة لأفراد المؤلفين وللأنواع الأدبية المختلفة، وكان ينسخ هذه المؤلفات عدد كبير من النسّاخ ثم تطرح للبيع. وهكذا يعود إلى المتحف والمكتبة احتكار الإسكندرية لتجارة الكتب وهو الاحتكار الذي استمر حتى أيام قيصر.

ومن اليسير أن ندرك مما سبق أن إدارة مجموعات الإسكندرية لم يكن يوكل إلا إلى العلماء المبرزين وخاصة أنهم كانوا يشغلون في نفس الوقت منزلة مربي القصر تلك المنزلة الرفيعة، وكان أول هؤلاء النحوي العظيم(زينودوتس) الافيسوسي Zenondotus of Ephesus (توفي حوالى ٢٦٠ ق. م) وقد بدأ ترتيب الكتب وأفتتح نشر الأدب اليوناني بطبعته عن هوميروس Homer ومن بين خلفائه ينبغي أن نذكر إيراتسثينesEratosthenذا العقل الجامع الذي وعى الفنون والعلوم جميعاً وعرف فوق ذلك كله بأنه منشئ علم التوقيت الزمني والجغرافيا الرياضية، ونذكر أيضا ارستوفان البيزنطيAristophanesالذى كان علم المعاجم أهم ما أسهم به، كما احتل كاليماخوس السيريني Callimachus of Cyrene مكانة خاصة في هذه القائمة من أمناء مكتبة الإسكندرية. ومن الباحثين من لايعتبره إطلاقا عضوا من هيئة موظفي المكتبة، على حين يعتبره البعض الآخر ذا صلة ما بالمكتبة وتعتمد منزلة كاليماخوس العلمية على فهارسه اللوحيةpinakes وقد أخرجها حوالى منتصف القرن الثالث ق.م. ولعله استعان بمخطوطات المكتبة وقد فصل فيها بين الشعراء والناثرين ثم قسم مؤلفات كلتا الطائفتين تبعا لموضوعاتها ورتب المؤلفين داخل كل قسم ترتيبا هجائيا وقدم لكل كتاب بذكر عنوانه واستهلاله وعدد أسطره. وبقيت هذه الفهارس اللوحية تحتل منزلة رفيعة وكانت أساس جميع الأعمال الببليرجرافية في العالم القديم.

أما عن تقسيم مكتبة الإسكندرية من حيث المباني فلا نعلم عنه شيئا علم اليقين وذلك يزيد من قيمة ماوصلت إليه الحفائر الألمانية في برغامةPergamum في نهاية القرن الماضي وكانت المكتبة هناك من إنشاء الاتاليين Attali، ويعتبر يومينس الثاني Eumenes II (١٩٧-١٥٨ ق.م) مؤسساً لها، فقد اكتشفت بالقرب من معبد أثينابولياس Athena polias ردهة مكشوفة يحيط بها رواق ذو أعمدة مكون من طابقين والحقت به أربع قاعات. وقد وجد في كبرى هذه القاعات تمثال كبير لاثينا على قاعدته نقوش عن بعض كبار الكتاب في آسيا الصغرى ومنها نص منشور عن هوميروس. ويتمثل في هذه المكتبة نمط بناء المكتبة القديمة، فالرواق فيها كان يمثل قاعة الدرس؛ والمدخل تجمله التماثيل والقاعات الباقية تخزن فيها الكتب والمبنى كله ملحق بمعبد (١).

ولم يصلنا من المعلومات إلا النزر اليسير عن المكتبات التي انشأها البطالمة الآخرون من أسرة خلفاء الإسكندر مثل مكتبات سيليوسيد Seleucids التي يبدو وأنها كانت هامة وعلى العموم فالمصادر عن هذه الفترة من الضآلة بحيث يكاد التطور الذي مرت به المكتبة الهلينستية يكون

(١). من أجل المزيد من الأوصاف والايضاحات عن المكتبات القديمة انظر:
Brent Gotze = Antike Bibliotheken jahrbuch des deutschen archaologischen institutes, L11 (1937), 125-247.

مجهولا . على أن الظواهر كلها تدل على أن مجموعة المخطوطات في الإسكندرية كانت في الأصل أداة بحث متاحة لجماعة محدودة من العلماء، ولابد أن عدد المنتفعين بالمكتبة قد اطردت زيادته، وليس ببعيد أن مكتبة الأكاديمية الأثينية القائمة داخل حدود البطوليميومptolemeum أصبحت أقرب إلى المكتبة الجامعية الحديثة وتقدمت إلى الأمام خطوة هامة حين أضافت إلى دائرة العلماء الضيقة دائرة أوسع من عامة المثقفين. واتخذت المكتبة لأول مرة طابع المكتبة العامة حقا ولم تعد مجرد مكان للدرس بل أصبحت- كما قال فيتروفيوس -Vitrvius« لمنفعة الجميع» (ad communem delectationem) ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا ان هذا النمط من المكتبات كان شائعا في الفترة الهلينستية لأنه النمط الذي أورثته حضارة شرق البحر المتوسط لغربي المتوسط في نهاية القرن الأول قبل الميلاد بحيث يصدق قول الشاعر القديم«إن اليونان المغلوبة قد قهرت فاتحها البربري»[1]. ويرى الباحثون المحدثون أن ثقافة الامبراطورية الرومانية ليست إلا امتداداً وتطوراً للثقافة الهلينستية.

ومنذ أواسط القرن الثاني قبل الميلاد اخذ القواد الرومانيون يأتون إلى بلادهم بالمكتبات اليونانية فيما يأتون به من أسلاب. وكان ايميليوس باولوسAemilius Paulus أول من فعل ذلك ثم حذا حذوه سولاSulla ولوكولوسLucullus في القرن التالي، وما كاد القرن الأول قبل الميلاد يقترب من نهايته حتى كان حب الكتب قد انتشر بين الأرستقراطية الرومانية، وكان شيشرونCicero يعتز بمجموعته اعتزازا كبيرا ويعتبرها درة بيته، وكان صديقه أتيكوسAtticus أول الناشرين الرومانيين الكبار حتى لقد وجد في نفسه الجرأة لينافس الإسكندرية في تجارة الكتب. وكان اتيكوس على حظ كبير من التعليم وقد استخدم عددا من المعاونين الذين يلمون الماما تاما بفقة اللغة وكان منهم فارووVarro الذي وضع رسالة جعل عنوانها(عن المكتبات)De Bibliothecis[2].

وقد حرص على أن يستأثر بمعونة فارو حتى يمكنه أن يؤسس مكتبة للدولة عساه أن يجمع بين حكم العالم وبين آدابه، كما يقول مومسنMommsen ويبدو أن محاولات قيصر من الناحية الثقافية كانت متأثرة بالنماذج الهلينستية. وهناك من الدلائل مايشير إلى أنه كان ينوي نقل مكتبة الإسكندرية إلى ضفاف التيبرTiber على أن المكتبة العامة الأولى في روما لم تنشأ إلا بعد وفاته وكان إنشاؤها في Atrium Libertatis وقد تم ذلك على يد أسنيوس بوليوAsinius Pollio

(١) Graecia capta ferum vicorem cepit . Horace. Epistles, 11,i,156.

(٢) Felix Reichmann: The book trade at the time of the Roman Empiro Library Quarterly, viii(1838),40-76.

أحد أصدقاء قيصر الحميمين فكان «أول من جعل ثمرات العقول ملكا عاما»[١] ونحا أوغسطس هذا المنحى فأسس مجموعتين إحداهما في بالاتين Palatine بمعبد أبو للو والأخرى في العاصمة بلغ عددها ثمانية وعشرين مكتبة على أننا لانستطيع أن نحقق منها إلا عددا يسيرا ولكننا لا نعدو الصواب إذا قلنا إن الأسواق والحمامات الرومانية الكبيرة لم تخل من مجموعات الكتب. وكانت أهم المكتبات مكتبةألبيا Ulpia قرب عمود Porticus Octaviae . وفي بداية القرن الرابع الميلادي وجدت المكتبات العامة في تراجان[٢]. وكانت كغيرها من المكتبات مقسمة إلى قسمين يوناني وروماني كما كانت تعتبر دار محفوظات لوثائق الدولة الهامة. وكان على رأس هذه المكتبات أول الأمر علماء ممتازون في مرتبة (أمين أول)procurator، ثم ميز فيما بعد بين الموظفين الإداريين وبين المديرين العلماء، وكان يعمل تحت إمرتهم عدد من الرقيق ومن العتقاء بلغ حدا من الكبر مما اقتضى أن يكون لهم طبيب خاص.

ولقد حاولت مدن إيطاليا ومقاطعاتها أن تحذو حذو روما، على أن الإشارات العابرة فيما بقي من المصادر الأدبية ونتائج الحفائر التي أجريت في الأماكن المختلفة لا تكفي لإمدادنا حتى بتقدير تقريبي لعدد المكتبات العامة في أرجاء الإمبراطورية الشاسعة، ولكن يغلب على الحدس أن أغلب المدن الكبيرة بالأقاليم التي كانت تهتم بالنشاط الفكري كانت بها مكتبات[٣].

وكان إنشاء المكتبات في بعض الأحيان يأتي نتيجة أريحية أحد الاباطرة وبهذا أهدى الإمبراطور هادريانHadrian المحب لليونان مكتبة رائعة لأثينا لازالت بقاياها تروع الناظرين حتى الآن ولكن انشاء المكتبات في الأعم الأغلب كان سخاء وهبة من المواطنين، وقد كان هؤلاء القوم يقدرون المكتبات حق قدرها ذلك أن حب الكتب كان أمرا شائعاً في زمن الإمبراطورية الرومانية، كما كان من لوازم الأمور آنذاك ألا يخلو القصر الارستقراطي بالمدينة أو أية فيللا كبيرة من مكتبة. ومن هنا كانت عبارةSeneca« سنيكا » اللاذعة« أصبحت المكتبة اليوم حلية ضرورية يزين بها البيت، كما تزود الحمامات بالمياه الباردة والساخنة[١]». وقال في مكان آخر : « ما قيمة العدد الذي لا يحصى من الكتب والمكتبات إذا كان السيد طول حياته لا يكاد يقرأ عناوينها[٢] وقد كانت هناك مكتبات خاصة تحوي ٣٠٠٠٠٠بل و٦٠،٠٠٠ لفافة، وكان سيد البيت

---

(١) "Primus ingenia hominum rem publicam fecit" Pliny, Naturalis Historia xxxv,10

(٢) من أجل مزيد من المعلومات عن المكتبات في روما انظر كتاب:

C.E.Boyd =Public Libraries and Literary Culture in Ancient Rome. chicago. 1916.

(٣) لوصف مثل هذه المكتبة انظر:

H.F pfeiffer = "Roman Library at Timgad" Memoirs of the American Academy inRome ix (1931)157-165

يحتفظ بعدد من الارقاء المتعلمين لينسخوا له الكتب أو كان يحقق طلبته عن طريق تجارة الكتب التي بلغت حداً كبيراً من الرواج في ذلك العصر. وكان المتعلمون يفضلون المؤلفين اليونانيين على غيرهم. وحجتنا في الاستدلال على محتويات المكتبة الرومانية قائمة في الكشف المشهور عن لفافات الكتب في الهركولانيومculaneum Her والتي تعتبر الآن من أنفس محتويات متحف نابولي.

لقد كان التنظيم الداخلي للمكتبات الرومانية يتبع على العموم المبادئ التي عرفناها من مكتبة برغامة وإن كان ذلك بالطبع لا ينفي وجود اختلافات فردية ومن ذلك ما كشفت عنه الحفائر المتأخرة في إفيسوسEphesus فقد وجدت فيها قاعة كتب ليس لها رواق بل لها واجهة محلاة بالأعمدة ودرج خارجي [٣] وكان فيتروفيوسVitrovius يصر على أن تواجه القاعات المشرق حتى تتمتع بضوء الصبح، ولكن تعاليمه لم تكن تتبع دائما. وكان يبنى جدار خارجي حول الجدار الداخلي حفظا للفافات البردي من أن تصيبها الرطوبة ولذلك نجد ممرا ضيقا بين الجدارين. وفيما عدا ذلك كانت المكتبات تشبه في عمارتها مباني العصر الأخرى من حيث الحجر والطراز المعماري والزخرفة الفنية، ويبدو أنه كان هناك دائما تمثال لأحد الآلهة يقام في منعزل من القاعة الكبرى وحوله تماثيل نصفية ولوحات بارزة للعلماء والكتاب « التي تنطق أرواحهم الخالدة في مثل هذه الاماكن ». Immortales animae locis iisdam loquuntur

وكان في المكتبة قدر كبير من الزخرفة ولكنها خالية من التذهيب إبقاء على الأعين، وكان يختار لتغطية الأرضية نوع من الرخام يميل إلى الخضرة. وكانت لفافات الكتب وهي تحمل بطاقات بعناوينها توضع في عيون الحوافظ الخشبية. وكثيرا ما كانت هذه الحوافظ تودع في طاقات في الحائط، وكان يوجد صفوف من هذه الطاقات الواحد فوق الآخر إذا اقتضت الضرورة ذلك، وكان يتوصل إلى الصفوف العليا بواسطة شرفات تستند على أعمدة ولا نستطيع أن نقطع بشيء فيما يتصل بترتيب الكتب إذا لم يصل إلينا إلا النزر اليسير من الفهارس، وكان بعض المكتبات يسمح باعارة الكتب. أما الإدارة فكانت في الأغلب موكولة إلى القساوسة لأن المكتبات كثيرا ما كانت ملحقة بالمعابد.

---

(١) lam enim inter balnearia et thermas biblibotheca quoque ut necessarium domus ornamentum expolitur seneca. De tranquillitate animi,Ix,4.

(٢) Quo innumerobiles libros et bibliothecas, Quorum dominus vix tota vita indices indices Perlegit" Ibid.ix.7

(٣) See Götz:op.cit.

إن تاريخ المكتبات اليونانية الرومانية يمتد فترة تقترب من ستمائة عام وقد كان ما حققه العالم المسيحي الغربي مبنيا على أساس ما تحقق من تقدم في المشرق على مدى فترة تبلغ ثلاثة أضعاف الفترة الغربية. وسنرى فيما يلي إلى أي حد ظلت المكتبات القديمة تعتبر مثلا أعلى في أعين المهتمين بأحوال المكتبات في العصور التي تلت.

* * *